عالم المغامرات

(٣)

المؤامرة الكبرى

تأليف

أشرف السيد العقبى

رسوم

د. يحيى عبده

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة لشركة **سفير**

رقم الإيداع ٥٤٨١ / ١٩٩٢
الترقيم الدولي : 0 - 160 - 261 - 977 : ISBN

مقدمة

كانت وما زالت التسلية الهادفة هى ضالة كل قارئ وناشر ومؤلف جاد، وكذلك كل الجهات الأمينة التى تعمل فى مجال ثقافة الناشئين والشباب، وقد زادت الحاجة إلى الأعمال الساعية إلى تحقيق هذا الهدف الآن أكثر من أى وقت مضى، خاصة وقد بدأت القراءة تحتل مكان الصدارة من جديد فى اهتمامات أبنائنا.

وقد وجدنا أنه لسد الفراغ الموجود فى هذه النوعية التى تهدف إلى الارتقاء بذوق أبنائنا ولغتهم وتنمية ثقافتهم وقيمهم بأسلوب يحترم عقولهم وتفكيرهم ويسمو بخيالهم؛ رأينا أن نقدم هذه السلسلة التى تتسم أحداثها بالمتعة والإثارة فى شكل قصصى جذاب.

فبالرغم من أن جميع الأحداث من نسج الخيال فإن أماكن وقوعها حقيقية، وكذلك ما ورد فيها من معلومات.

وقد راعينا فى هذه السلسلة أن تحمل كل قصة من القصص المقدمة – فى طياتها– قضية أو عدّة قضايا تهم القارئ وتمس حياته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فيشعر أن هناك من يقف بجانبه ويشاركه التفكير فيما يهمه بعيدًا عن أسلوب الوعظ المباشر.

وقد راعينا أيضًا فى هذه السلسلة خروج القصة فى قطع صغير يسهل على القارئ اصطحابها معه فى أى مكان، وكذلك جودة الطباعة وجمال الرسومات المعبرة.

١ - انتقام التنين

فى إحدى الليالى التى ازدانت سماؤها الصافية بالنجوم المتلألئة، وظهر القمر بدرًا كاملا، ساد العاصمة سكون مهيب، وحفتها نسمة باردة صافحت وجه « شريف » الذى كان جالسًا فى شرفة منزله، غارقًا فى أفكاره، ومحاولا إيجاد تفسير للرؤيا التى رآها لتوه فى منامه.

أفاق « شريف » على صوت الكروان وهو يسبِّح بحمد الله تعالى، فما هى إلا دقائق حتى ترامى إلى سمعه أذان الفجر ؛ فتوضأ وذهب إلى المسجد، وقد انشرح صدره، واغرورقت عيناه بالدموع؛ مما رأى فى منامه من مشهد مس قلبه، وأحيا فى نفسه لهفة دفينة، وحبًّا جارفًا لرسول الإنسانية « محمد » ﷺ.

وبعد الصلاة، جلس « شريف » إلى أحد العلماء المشهود لهم بالعلم، والورع، وكان صديقًا لوالده رحمه الله، فقال له:

– فى الحقيقة يا شيخنا لقد رأيت رؤيا، وأريد تأويلها.

– تفضل يا ولدى.

– لقد رأيت أنى أنام فى غرفة بمفردى على الأرض، وسمعت حركة من حولى، وعندما أفقت رأيت أن الغرفة قد امتلأت بأناس لا أعرفهم، وقد جلسوا وكأنهم فى انتظار شىء ما، فتعجبت من ذلك!!

ثم دخل إلى الغرفة شيخ يلبس ثيابًا بيضاء، وتنبعث منه رائحة المسك، وسألنى عندما رأى الدهشة على وجهى!

– هل تعرف لماذا ينتظر كل هؤلاء الناس ؟

فأجبت بالنفى، فقال :

– إنهم ينتظرون الإذن بالدخول لزيارة الرسول الكريم ﷺ.

فبكيت، فقال لى :

– هل تريد أن تراه ؟

قلت : نعم. فقال :

– وماذا ستطلب منه ؟ قلت :

– أسأله الدعاء. فقال لى :

– إذًا هيا بنا.

وأخذ بيدى وعبرنا بهو المنزل؛ ودخلت الغرفة المقابلة، فوجدتها قد أضيئت بأنوار ساطعة، وكأنها ساحة المسجد الحرام بمكة، تتوسطها «الكعبة المشرفة» ، ونظرت حولى فلم أجد الرجل.

أجاب الشيخ، وقد بدا على وجهه الاهتمام :

– هذا خير يا ولدى، فهذه دعوة لزيارة بيت الله الحرام فى مكة

المكرمة، وزيارة قبر الرسول ﷺ بالمدينة المنورة.

– لكن يا شيخنا حدث بعد ذلك أن ساد الحجرة ظلام دامس استمر فترة، ثم أعقبه نور ساطع !!

– وهذا أيضًا خير يا ولدى، فسوف تتعرض لمحنة، ثم يأتيك الفرج والخلاص.

خرج «شريف» من المسجد، وقد عقد العزم على السفر لأداء العمرة فى الأراضى المقدسة، ولكن كان عليه أولاً أن ينجز المهمة التى جاء من أجلها إلى العاصمة، وهى الذهاب إلى هيئة الطاقة النووية؛ لتسليم بعض الأوراق الخاصة به.

وفى الصباح الباكر، دخل «شريف» الهيئة وسار بخطوات هادئة؛ حتى وصل إلى نهاية الممر الطويل المفروش بالسجاد الأحمر وأصبح فى مواجهة باب كبير يدل على عراقة المكان، فطرقه بخفة ثم أدار المقبض، ودخل وأغلق الباب خلفه، ثم توجه إلى المكتب الفخم المواجه للباب، وألقى السلام على مدير مكتب رئيس هيئة الطاقة النووية، وعرفه بنفسه قائلا :

– «شريف فهمى».

– مرحبًا بك يا «باشمهندس شريف». تفضل بالجلوس، لحظة من فضلك.

وانشغل عنه ببعض الأحاديث الهاتفية، وفى أثناء ذلك أخذ « شريف » يجيل بصره فى اللوحات المعلقة على جدران الغرفة، وكانت كلها لوحات علمية فى مجال الذرة؛ منها لوحة تمثل مقطعًا رأسيًّا فى مفاعل نووى بجدرانه السميكة ذات الطبقات المتتالية، وأخرى للذرة برسمها المشهور، وهو عبارة عن حلقات بيضاوية تحيط بالنواة.

تنبه « شريف » على صوت رنين الجرس الصادر من حجرة رئيس الهيئة، فوقف مدير المكتب وعدل رابطة عنقه، ودخل وهو يحمل ملفًّا كبيرًا، وبعد برهة خرج ودعا « شريفًا » إلى الدخول .

استقبل رئيس الهيئة العلميه « شريفًا » قائلا :

– مرحبًا بك يا « باشمهندس » تفضل.

– شكر الله لك.

– هل أعددت أوراق انتدابك؟

– نعم.

– من الطبيعى يا « باشمهندس شريف » أن أطلعك على سبب إصرارنا على ندبك للعمل معنا فى هيئة الطاقة الذرية.

– هذا شرف لى على كل حال.

أكمل رئيس الهيئة حديثه قائلا :

– السبب الرئيسى أننا اكتشفنا مخزونًا لا بأس به من بعض العناصر المشعة بأحد جبال الواحة، وهذا المخزون يمثل ثروة قومية ويبشر بمستقبل مشرق للبلاد بإذن الله، وقد أردنا الاستفادة بخبرتك فى معرفة دروب الواحة ومسالكها بحكم عملك هناك لمدة طويلة، وذلك فى معاونة فرق البحث والتنقيب للعثور على المزيد من تلك المواد، هذا بالإضافة إلى كونك متخصصًا فى علوم طبقات الأرض وعلوم الصحراء، وكذلك لسمعتك الطيبة، وحبك الشديد لبلدك، من أجل ذلك كله رأينا انتدابك للعمل معنا عضوًا فى كل البعثات المتجهة إلى الواحة، وسوف تتسلم عملك بمجرد أن تنهى متعلقاتك وتخلى طرفك من الواحة ولمدة عام.

خرج « شريف » بعد هذه المقابلة وقد علت وجهه علامات السعادة، فحمد الله على أن منحه هذه الثقة من أولى الأمر، ولكن يخالطه حزن دفين على ترك الواحة كل هذه المدة.

أنهى « شريف » متعلقاته بالواحة وودّع جيرانه، وعاد مرة أخرى إلى العاصمة حيث خُصصت له حجرة مكتب فى مبنى هيئة الطاقة النووية، وبدأ عمله الجديد بكل الجدية والتفانى كعادته، وفى نفس الوقت كان يُعد العدة لرحلة العمرة المرتقبة.

وبعد عدة أسابيع طلب « شريف » من رؤسائه أن يأذنوا له بالسفر، فأذنوا له، وسألوه أن يدعو لهم، ولم يبق أمامه إلا أن يودع أهله وزملاءه ومعارفه.

اتجه « شريف » إلى صديقه « صفوان » الذى صفّى كل أعماله فى « لندن »، وأقام بصفة دائمة فى عاصمة بلادنا، بعد أن أقام بها مشروعًا تجاريًّا كبيرًا.

– لقد جئت إليك اليوم لأودعك يا « صفوان ».

– تودعنى ! هل أنت مسافر؟

– نعم. مسافر لمدة أسبوع على الأكثر بإذن الله، لأداء العمرة.

– تقبل الله منك يا « شريف ». وما موعد إقلاع الطائرة ؟

– أنا مسافر عن طريق البحر.

– عظيم. عظيم، فإن الرحلات البحرية ممتعة.

أعد « شريف » حقيبة صغيرة كعادته، تحتوى على الضرورى فقط من الثياب، والمشط، والمرآة، والمسواك، والمصحف، وبعض أوراقه الخاصة.

ودعه « صفوان » قائلا : فى رعاية الله، ولا تنس أن تتصل بنا بمجرد وصولك حتى نطمئن عليك.

سارت الرحلة على ما يرام إلى أن كادت تقترب من ميناء « جدة » وكان ذلك ليلا.

وقف « شريف » على سطح السفينة، يراقب ذلك المشهد الرائع،

فأنوار الميناء متلألئة من بعيد، ومياه البحر الزرقاء الصافية تعكس على صفحتها صورة القمر فى كامل استدارته.

وفجأة اصطدمت العبَّارة بشىء صلب فى المياه، جعلها تهتز بشدة، ثم مالت على أحد جانبيها، واشتعلت النيران فى حجرة المحركات، وبدأت تزحف على باقى العبَّارة. وما هى إلا دقائق حتى بدأت العبارة تغوص فى الأعماق، وسط صراخ الركاب وذهولهم ودعائهم وتوسلهم لله أن ينجيهم.

قفز « شريف » بسرعة فى المياه، ثم تعلق بأحد أطواق النجاة، ولم يشعر بعدها إلا بيد أحد رجال الإنقاذ البحرى تمتد إليه وتنتشله.

نقل « شريف » بعدها مع كل الجرحى إلى أحد مستشفيات « جدة »، ولم تكن إصابته خطيرة ولكنها كانت مؤلمة، وأثناء مرور أحد أطباء المستشفى عليه، سأله « شريف » وهو يتألم.

– ما هى إصابتى بالضبط يا دكتور ؟

نظر الطبيب فى اللوحة المعلقة على سريره، وقال له :

– إنها مجرد إصابات سطحية، وهى عبارة عن كدمات بالوجه والرأس، وجرح قطعى بالقدم اليمنى، وسوف تُظهر الأشعة إن كان هناك أى كسور أو نزيف داخلى. عمومًا الحالة العامة مطمئنة والحمد لله.

– متى يمكننى الخروج يا دكتور ؟

– إذا كانت صور الأشعة مطمئنة؛ فيمكنك الخروج بعد أسبوع وتكمل العلاج بالمنزل.

كانت أخبار غرق العبَّارة قد وصلت إلى « صفوان » وزملائه وأصدقاء « شريف » فى العمل، وأثناء ذلك اتصل بهم « شريف » وطمأنهم على سلامته.

وبعد انتهاء الأسبوع، طلب « شريف » من الطبيب المعالج مغادرة المستشفى، فكان رد الطبيب :

– كما تريد، سأصرح لك بالخروج.

وفى صباح اليوم التالى كان « صفوان » فى انتظار « شريف » بالمطار، إثر مكالمة منه تخبره بموعد حضوره، وما إن رآه حتى عانقه قائلا :

– حمداً لله على سلامتك يا « شريف ».

وكان « شريف » يضع ضمادات على وجهه، ويسير بخطى بطيئة.

قال « صفوان » وهو يساعد صديقه :

– شفاك الله يا صديقى، والآن هيا بنا، السيارة فى انتظارك لتقلك إلى منزلك.

– انتظر يا صديقى حتى تصل الحقائب.

– أى حقائب يا «باشمهندس» ؟!

– حقائبى، وبها بعض الهدايا للأصدقاء.

– ولكنك لم تتعود على إحضار حقائب كثيرة عند عودتك من أية رحلة.

– يا صديقى إنها هدايا مستوردة، وهل يوجد ما هو أفضل من المستورد؟

ارتسمت على وجه «صفوان» علامات الدهشة، ولم يرد.

انطلق بهما سائق السيارة الأجرة، إلى أن وصلا إلى منزل «شريف».

وفى صباح اليوم التالى. رن جرس الهاتف فى منزل «شريف».

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. من المتحدث؟

– هل نسيت صوتى ؟ أنا «صفوان».

– مرحبًا يا «صفوان».

– كيف حالك اليوم يا «شريف» ؟ هل أنت بخير ؟

– نعم. وسأتجه إلى العمل اليوم.

توجه « شريف » إلى عمله حاملا الهدايا لزملائه، ودخل مكتب رئيس الهيئة حاملاً فى يده ورقة، كانت الضمادات ما زالت على وجهه.

– مرحبًا بك يا « شريف » . نحمد الله على سلامتك.

– شكرًا ، ومد يده بالورقة.

– ما هذا يا « شريف » ؟

– إنه التقرير الطبى الصادر من المستشفى التى كنتُ أُعالج بها.

هل تسمح لى يا سيدى بتسلم العمل اليوم؟

– ماذا تقول يا « شريف » ؟! إن التقرير يمنحك راحة لمدة ثلاثة أسابيع أخرى، وأنت لم تتماثل للشفاء بعد.

– أنا بخير يا سيدى، وأرجو إجابة طلبى.

أجابه رئيس الهيئة قائلا :

– كما تريد.

تسلم « شريف » عمله، وأخذ يتفحص أوراق مكتبه بشغف وباهتمام وكأنه يقرؤها لأول مرة، وقد بدا عليه نشاط وحيوية لا تتفق وإصابته أو حالته الصحية الراهنة.

ذهب « شـــريف » إلى المفـــاعل، وهو مكان لا يدخله إلا

المتخصصون، لكن بحكم ثقة رؤسائه فيه كان يدخل ويخرج من تلك الأماكن بحرية تامة.

وفى صباح اليوم التالى، وجه رئيس هيئة الطاقة الذرية الدعوة إلى اجتماع عاجل وسرى، يحضره نخبة من العلماء والمتخصصين، وحضره كذلك المهندس « شريف ».

وفى حجرة الاجتماعات جلس كلٌّ فى مكانه ودخل رئيس الهيئة، وسلم على الحاضرين، وبدأ حديثه على الفور :

أيها السادة أزف إليكم بشرى طيبة، لقد استطعنا بنجاح والحمد لله، تخصيب أول ثلاثة كيلو جرامات من « اليورانيوم » المشع، وهذه خطوة كبيرة على الطريق الذى بدأناه منذ سنوات طوال، أعتقد أننى لست فى حاجة إلى أن أذكركم بمدى سرية هذا الحدث، وقد قررنا حفظ هذه الكمية بالمعهد التابع للهيئة لإجراء تجاربكم عليه، وقد جهزنا لذلك حجرة مزودة بأجهزة تحكم حديثة، وسننقل هذه المواد غدًا بإذن الله، هل من أسئلة ؟

رفع « شريف » يده يريد الكلمة، فحدق فيه الحاضرون باستغراب، لأنه ليس من المتخصصين فى علم الذرة. ففى أى شىء سيتكلم إذًا ؟!

– قل ما عندك يا « شريف ».

– هل اتصلتم بالجهات الأمنية لتوفير الحماية اللازمة أثناء عملية

النقل، وأثناء حفظ هذه المواد بالمعهد؟

– نعم يا « شريف » فجهاز المخابرات العامة سيتولى هذه المهمة بنفسه.

– أقترح بعد إذن السادة الحاضرين، عمل بطاقات هوية خاصة بالأشخاص الذين سيسمح لهم بدخول تلك الأماكن حفاظًا على سريتها.

هذا اقتراح جيد يا « شريف »، وقد بدأنا فيه بالفعل، ولن يسمح لأحد بالدخول إلا نهارًا فقط.

بعد انتهاء الاجتماع، ازداد رئيس الهيئة إعجابًا بجرأة « شريف » وسداد رأيه، وكان « شريف » بحكم عمله يُسمح له بدخول المعهد، حيث تجرى الأبحاث على « اليورانيوم المخصَّب ».

تم نقل الشحنة فى أمان إلى المعهد، وحُفظت داخل غرفة كبيرة مبطنة بالرصاص الذى لا يسمح بتسرب المواد المشعة، كما تم تجهيز الغرفة بنافذة زجاجية سميكة معالجة بطريقة خاصة لا تسمح بالتسرب أيضًا، وبذراع آلى يتم تحريكه من الخارج بأجهزة تحكم خاصة؛ لكى يتمكن من بخارج الغرفة من التعامل مع تلك المواد الخطرة عن بعد، ولحماية فريق العلماء من الأشعة المميتة، أثناء إجراء أبحاثهم. وزيادة فى الحيطة، تم تزويد الغرفة بأجهزة إنذار تعمل تلقائيًّا بمجرد فتح أبواب الغرفة، أو تسرب الأشعة منها.

٢ - أدلة الإدانة

تسلل « شريف » ليلاً إلى حديقة المعهد، متخطيًا السور الحديدى المحيط به. وكانت الأضواء الكاشفة قد أحالت ظلمة المكان إلى نهار، أما رجال الحراسة فقد كانوا منتشرين فى كل مكان.

فكر « شريف »، كيف سيخترق كل إجراءات الأمن هذه ؟

ولمعت فى ذهنه فكرة.

توجه « شريف » بخفة ناحية غرفة الكهرباء الرئيسية خارج المعهد، وعالج القفل بآلة كانت معه فانفتح بسهولة؛ وقطع التيار الكهربائى، فعم الظلام أرجاء المعهد؛ فحدث ارتباك شديد بين الحراس، وسُمع من بعيد من يقول :

– اتصلوا بمهندس الكهرباء لإصلاح العطل.

وفى أثناء ذلك، توجه « شريف » وهو يحمل حقيبة أوراق صغيرة، وصندوقًا صغيرًا من الرصاص إلى مبنى المعهد من الخلف، وتسلق مواسير الصرف حتى وصل إلى سطح المعهد، وأخذ يراقب حركة الحراس من أعلى.

وفى خفة نزل السلم حتى وصل إلى الطابق الذى توجد به حجرة « اليورانيوم المخصب »، وهناك وجد أحد الحراس يجوب الممر جيئة

وذهابًا، وفى يده كشاف يضىء أمامه.

انتظر «شريف» حتى أولاه الحارس ظهره، وفاجأه بضربة عنيفة على رأسه أفقدته الوعى، ثم بعد ذلك أوثقه وكممه، وبدأ فى قطع دائرة الإنذار الخاصة بحجرة «اليورانيوم المخصب» بمهارة، وبمجرد انتهائه من هذه المهمة، قام بتحريك الأذرع الميكانيكية حتى أصبحت فوق كتلة «اليورانيوم» تمامًا، ثم التقطها بحركة خاطفة وبدأ فى تحريكها بالقرب من الزجاج الواقى، وفكر فى تحطيم الزجاج لكنه كان سميكًا، كما أنه سوف يحدث صوتًا عاليًا عند كسره.

اتجه ناحية باب الغرفة فوجده مغلقًا بأقفال شديدة التعقيد، لا يقوى على فتحها إلا لص بارع.

فكر «شريف» فى تجربة حيلة أخرى، فأخرج من جيبه جسمًا معدنيًّا صغيرًا وألصقه بالقفل ثم ابتعد، وما هى إلا برهة، حتى حدث انفجار مكتوم مصحوب بحرارة عالية جدًّا، أذابت القفل ففتح باب الغرفة.

وضع «شريف» كتلة «اليورانيوم» داخل الصندوق المصنوع من الرصاص الذى أحضره معه، ثم أخرج من جيبه قطعة من شريط لاصق، ووضعها فوق الباب وراح يمر بقبضته عليها، ثم انتزعها بحرص.

ترك «شريف» حقيبة الأوراق الصغيرة التى كانت معه بجوار

الحارس، وأخذ طريقه إلى سطح المبنى مرة أخرى، وما كاد يضع قدمه على درجات السلم حتى أضيئت كل أرجاء المعهد مرة أخرى، فأسرع يرتقى درجات السلّم، وهو يحمل جهد عشرات العلماء لسنوات طوال فى يده.

نزل «شريف» من أعلى سطح المعهد إلى الحديقة الخلفية، وما كادت قدمه تلمس الأرض حتى سمع أصواتًا عالية تبعها هرج شديد، وأخذ رجال الأمن والحراس ينتشرون فى كل ركن من أركان المعهد والحديقة، وحاصروا المكان.

قال «شريف» فى نفسه :

لقد اكتشفوا اختفاء «اليورانيوم» بسرعة، فألقى بالصندوق خارج السور، وتسلَّقه بسرعة فتعلق حذاؤه بالسور فتركه وقفز إلى الخارج.

شاهده أحد حراس المعهد، فلم يصدق عينيه فصوب المسدس نحوه، لكن «شريف» أسرع وركب سيارة كانت فى انتظاره وانطلقت تسابق الريح.

بلغ الخبر رئيس هيئة الطاقة الذرية، وعلى الفور شُكل فريق من أكفأ رجال البحث الجنائى، والمخابرات العامة، وقاموا باستجواب الحرس، ورفع البصمات من المكان، وتحريز الحذاء، وسماع أقوال شاهد العيان الوحيد.

وبدأ البحث عن « شريف » الذى اختفى تمامًا، وانتشر الخبر انتشار النار فى الهشيم، لم يصدق « صفوان » ما يقال عن صديقه « شريف » المعروف بكل الشمائل الحسنة؛ وخاصة بعد أن صدرت الصحف فى اليوم التالى لحادث السطو على معهد الطاقة الذرية وهى تحمل صورة « شريف »، وتنعته بأفظع الأوصاف، وهى التى كانت بالأمس القريب تصفه بالبطولة والوطنية، وكل ذلك قبل أن تثبت عليه الجريمة، أو تدينه محاكمة عادلة يُتاح له فيها حق الدفاع عن نفسه.

اجتمع رئيس جهاز المخابرات مع رجاله، وحدثهم فى غضب قائلا:

– أقسم لكم أنه إذا لم يتم القبض على ذلك الفتى خلال ٢٤ ساعة، فلن أكتفى بنقلكم جميعًا إلى أماكن نائية، بل سأحولكم إلى محاكمة عسكرية عاجلة.

واستطرد قائلا، والشرر يتطاير من عينيه :

– الأمر فى غاية الخطورة، وإذا لم نستطع الوصول إلى « اليورانيوم » المسروق فهذا معناه عودتنا عشرات السنين إلى الخلف، واختلال ميزان القوى بيننا وبين أعدائنا الذين يتربصون بنا.

ثم هدَّأ من نبرته الحادة :

– أما من سينجح فى القبض عليه، ففى انتظاره مفاجأة سارة.

انتهى الاجتماع الذى ساده التوتر، وتوجه الرجال إلى مكان آخر، وأخذوا يجهزون خططهم ويتبادلون المشورة فيما بينهم.

وفى مكان آخر كان رجال الشرطة على الدرجة نفسها من التوتر؛ بسبب ذلك الحادث الذى يمثل تحديًا لقدراتهم، وقد يؤدى إلى اهتزاز صورتهم أمام الرأى العام.

وبعد يومين من وقوع الحادث، كان أحد ضباط الأمن يقف أمام المطار الدولى وهو يتفحص الوجوه، وينظر إلى صورة كانت فى يده وفجأة وقع بصره على أحد الأشخاص وما إن قارنه بصورة « شريف » التى يحملها حتى أشار إلى رجاله فوثبوا جميعًا عليه، وطرحوه أرضًا، وما هى إلا لحظات حتى كان « شريف » أسفل عدة أجسام ثقيلة، مكبل اليدين، منهك القوى.

صاح « شريف » قائلاً :

– ياله من استقبال !! ماذا حدث، أنا « شريف فهمى » ؟!

رد عليه أحد الضباط قائلا :

– يا لك من جرىء، وتعترف أيضًا ؟!

– وما الغريب فى هذا؟ وهل فى ذكر اسمى أية مخالفة ؟! عمومًا إذا لم يكن يعجبكم فأنا على استعداد لتغييره.

صاح الضابط فى ذعر.

– لا .. لا تغيره قبل أن أسلمك للرئاسة.

وأخذه الضابط إلى غرفة الأمن بالمطار.

جلس «شريف» متألمًا، وأخذ يتحسس قدمه المصابة فى حادث العبّارة.

صرخ الضابط:

– فتشوه، ربما كان يخفى سلاحًا.

وقاموا بتفتيشه، فلم يجدوا شيئًا.

سألهم «شريف» وقد اختلطت فى وجهه علامات الدهشة والألم.

– هل لى أن أسأل؟ ما سبب كل هذا ؟!

نظر إليه الضابط، وقد اطمأن إلى أن الأمر قد أصبح تحت سيطرته.

– هل تعتقد أننا بهذه الدرجة من السذاجة ؟! تفعل ما فعلت ثم تريد مغادرة البلاد بهذه البساطة !

أجاب «شريف» مندهشًا:

– أغادر البلاد !! من قال هذا؟ إننى عائد لتوى من «المملكة العربية السعودية»، وهذه أوراقى، ونظر حوله فوجد أحد جنود

الحراسة يحمل حقيبته فأشار إليه لكى يناوله إياها .

نظر الجندى إلى الضابط فأومأ إليه موافقًا .

وبينما « شريف » منهمك فى فتح الحقيبة، سأله الضابط :

– وأين حقائبك أيها العائد ؟

– لقد تعودتُ عند سفرى، أو عودتى من أية رحلة أن أحمل حقيبة صغيرة فيها الضروريات التى تلزمنى فقط .

– وأين الهدايا؟ ألست عائدًا من « السعودية » ؟

ابتسم « شريف » بصعوبة، وقال :

– لماذا أحضرها من الخارج، وكل شىء موجود فى بلدى ؟!

أخرج « شريف » جواز السفر، وناوله للضابط، وبمجرد أن قرأه دوت فى الحجرة ضحكة عالية، انطلقت من حنجرة الضابط، وقال :

– يا لك من شقى !!

سأله « شريف » متعجبًا :

– هل هناك ما يثير الضحك ؟

هبّ الضابط واقفًا، وقال لشريف متحديًا :

– ماذا تظن بنا ؟! هل وصل بك الأمر إلى أن تستهزئ بنا إلى هذا

الحد ؟!

لم يعرف « شريف » سبب غضب الضابط إلا عندما وضع جواز السفر أمامه، فإذا به تأشيرة مغادرة إلى إحدى الدول الأوربية، ولم يجد أية تأشيرة للدخول إلى البلاد.

ابتسم « شريف » قائلا :

– لا تُغضِب نفسك، لابد أن جوازات السفر قد اختلطت، فهذا الجواز لا يخصنى.

رد عليه الضابط :

– والصورة والاسم، أليست هذه صورتك، وهذا اسمك ؟

صاح « شريف » :

– هذه إذًا ليست حقيبتى، لابد أن فى الأمر خطأ ما !

نظر إليه الضابط ساخرًا :

– هكذا يقولون دائمًا ! ألقوه بجوار الجدار، حتى يأتوا ليتسلموه.

جلس « شريف » مستسلمًا، وقد أسند رأسه إلى الحائط، بعد أن استبد به التعب والحيرة، وقال محدثًا نفسه :

– أهكذا يُفعل بى فى بلدى ؟ على أية حال نحمد الله على كل

شيء.

نظر « شريف » إلى جندى الحراسة الواقف بجواره، وقال له :

– من فضلك يا « شاويش » ، هل أنا متهم بشيء ما ؟

نظر الجندى إلى السقف فى ثقة، وكانت الغرفة شبه مظلمة.

– بيقولوا إنك سرقت « الينيون » !!

وكانت تلك الكلمة التى خرجت من فم الجندى القادم من أعماق الريف، كفيلة بجعل « شريف » يغرق فى الضحك !

توقف « شريف » عن الضحك، عندما سمع صوت سيارات النجدة قد اقتربت معلنة قدومها، لتأخذه إلى حيث مكان التحقيقات، وفى وسط حراسة لم يسبق لها مثيل، تم إدخال « شريف » إلى سيارة مصفحة، ثم أوصدوا عليه الباب بالمتاريس والأقفال، بينما وقف الضابط الذى ألقى القبض عليه فى زهو، تدور فى رأسه أحلام الحصول على الترقية أو المكافأة.

تمتم « شريف » فى حسرة، عندما رأى كل هذه الإجراءات، وقال :

– يا ألله !! هل أنا بهذه الخطورة ؟

انطلقت سيارات الشرطة فى وسط العاصمة بصفاراتها المميزة، حتى وصلت إلى مبنى كبير، وبمجرد نزول « شريف » من السيارة

انطلقت أضواء الكاميرات تصفع وجهه لتسجل ذلك الحدث؛ وهو حدث القبض على سارق «اليورانيوم»، والميكروفونات ذات العصا الطويلة تتدافع نحو وجهه، ربما تفوه بكلمة تصلح سبقًا صحفيًّا.

وفى داخل المبنى الكبير، كان فى انتظار «شريف» رئيس هيئة الطاقة الذرية، وكبار رجال المخابرات والشرطة.

أُصيب «شريف» بالوجوم، وأصبحت نظراته متبلدة، فهو ينظر حوله ولا يدرى ماذا يحدث، وقد بدأ يقتنع بأنه مجرم عاتى الإجرام وهو يساق إلى حجرة التحقيقات.

أجلسه مدير مكتب التحقيقات أمامه، وبدأ فى توجيه الأسئلة إليه.

لم يكن «شريف» حتى هذه اللحظة يعرف التهمة الموجهة إليه، وإن كان الخوف قد تسرب إلى نفسه، وبدأ ينهزم من الداخل.

دخل مدير هيئة الطاقة الذرية إلى حجرة التحقيق، فأشاع ذلك الطمأنينة فى قلب «شريف»، ثم وجّه «شريف» نظرة يملؤها الحزن والإرهاق، وسأل المحقق :

– هل يُمكننى أن أسألك يا سيدى، ما التهمة الموجهة إلىّ ؟

نهره المحقق بشدة قائلا :

– نحن هنا من يوجّه الأسئلة. وأنت تجيب، وليس العكس.

استجمع « شريف » ما بقى من قوة، ونظر إلى المحقق متحديًا، وقد امتلأ غيظًا.

– إذًا لن أتفوه بكلمة إلا فى وجود المحامى !

بهت المحقق من رد « شريف » ، وبدأ يخفف من حدته.

– اسمع يا « شريف » أعدك لو أعدت المواد المسروقة إلى المعهد أن أقف بجانبك ونعتبر الأمر منتهيًا.

نظر « شريف » إلى المحقق وقال :

– وما هى المواد المسروقة ؟

أجاب المحقق :

– « اليورانيوم ».

تذكر « شريف » كلام جندى الحراسة، الذى أسماه « الينيون » فضحك، فاعتقد المحقق أنه يسخر منه، فقال له فى نبرة تهديد :

– نحن لدينا الوسائل الكفيلة التى تجعلك تعترف بمكان « اليورانيوم ».

رد « شريف » بلا مبالاة :

– يا سيدى دعنا نتكلم بالعقل، ما علاقتى أنا بما تقول ؟ أنا عائد

اليوم فقط من « المملكة العربية السعودية »، بعد غياب دام شهرًا، ثم نظر إلى رئيس هيئة الطاقة قائلا : لماذا لا تتكلم يا سيدى؟ هل رأيتنى منذ شهر؟

أجاب الرجل :

– لقد كنت معى منذ ثلاثة أيام يا « شريف » ولا داعى لهذه المراوغة.

تدخل المحقق منهيًا حوارهما الجانبى بقوله :

– هل تريدنا أن نتكلم بالعقل يا « شريف » ؟

– تفضل يا سيدى.

– إذًا انظر إلى هذا. أليس هذا جواز سفرك ؟

تناوله « شريف » متفحصًا.

– نعم.

– اقرأه من فضلك.

– يا إلهى ؟! إنه مسجل به تاريخ خروجى من البلاد، وبعده بأسبوع تأشيرة الدخول !

– حسنًا . وهذا التقرير الطبى هل هو خاص بك ؟

– نعم.

أضاف المحقق :

– ومسجل به تاريخ خروجك من مستشفى « جدة »، وهو فى اليوم السابق لدخولك البلاد.

– نعم.

– هذا حسن جدًّا. فكيف تدّعى أنك عائد اليوم فقط من هناك؟

– لابد أن هناك لبسًا فى الأمر؛ فهذا الجواز هو جواز سفرى حقًّا، لكننى فقدته أثناء حريق العبارة، وهذا التقرير هو الآخر خاص بى، ولكنْ هناك شىء لا تعرفونه، فبعد خروجى من المستشفى كنت فى ضيافة أحد الأثرياء، ونظر إلى رئيسه قائلا :

– الشيخ « صالح الجاسم » يا دكتور، إنه صديقك الذى أرسلته لكى يعتنى بى، واستضافنى ثلاثة أسابيع فى قصره، ولم أرجع إلا اليوم.

مطّ رئيس الهيئة شفتيه، وقال مستغربًا :

– أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم !

ثار « شريف » بشدة وقال :

– كيف يكون هذا؟!، هل وقعتُ ضحية لعملية نصب ؟! عمومًا أنا أعرف عنوان الشيخ ولابد من استدعائه للشهادة.

هدأه المحقق قائلا :

– سنرسل إليه. والآن لتترك هذه الأمور جانبًا وأخبرنى، أليست هذه حقيبة أوراقك ؟

– بلى، هى حقيبة أوراقى.

– لقد وجدناها بجوار غرفة « اليورانيوم » بعد سرقته، وكان بها جواز سفرك الذى أطلعتك عليه الآن.

رد « شريف » :

– من السهل وضع أشياء فى أى مكان؛ لاتهامى بالسرقة.

– وماذا تقول فى بصماتك التى وجدناها على باب غرفة « اليورانيوم » المسروق ؟

– بصماتى ؟!!

– نعم. وماذا تقول فى شهادة الحارس الذى شاهدك وأنت تقفز من فوق سور المعهد. ومعك صندوق صغير، وقد سارعت بالهرب فى سيارة كانت تنتظرك؟

أمسك « شريف » برأسه وقال فى حدة : كيف أكون فى مكانين فى آن واحد ؟

أجاب رئيسه :

– دعك من هذا يا « شريف »، لقد رأيتك أنا وكل زملائك بالمعهد، وتعاملنا معك منذ عودتك ولمدة ثلاثة أسابيع، فهل تكذِّب نظر كل هؤلاء ؟!

تدخل المحقق منهيًا التحقيق قائلا :

– إنك لم تستطع إثبات قولك أو ادعائك عودتك اليوم، فجواز السفر الذى ضبط بحوزتك يدل على اعتزامك مغادرة البلاد إلى إحدى الدول الأجنبية، بعد أن ارتكبت جريمتك. وسوف نعرف لحساب من تعمل، وأين أخفيت المسروقات ؟

والآن أوجه إليك تهمة التخابر مع دولة أجنبية، والاستيلاء على ثلاثة كيلو جرامات من « اليورانيوم المخصّب »، حيث لا يوجد أى دليل على صدق ادعائك، بينما أثبتت شهادة الشهود وجودك داخل البلاد بل ووجودك داخل المعهد وقت وقوع الجريمة، وهذه الجريمة عقوبتها الإعدام.

أسقط فى يد « شريف » . وعرف أنه وقع فى مؤامرة تستهدف القضاء عليه، وقد حيكت خيوطها بإحكام شديد.

فقال فى نفسه :

– على أية حال لا بد للحق أن يظهر، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

٣ - البحث عن دليل البراءة

كان « شريف » يجلس القرفصاء مطأطئًا رأسه، فى أحد أركان الزنزانة المظلمة. نظر حوله فذكره ذلك الظلام بالرؤيا التى رآها وفسرها له ذلك العالم الجليل، بقوله : ستتعرض لمحنة ثم يأتيك الفرج، وبمجرد مرور هذا الخاطر على ذهنه، امتلأت نفسه بالأمل ودعا الله أن يُفرج كربته ويخلصه مما هو فيه، ثم أخذ فى تلاوة بعض سور القرآن الكريم.

فُتح باب الزنزانة، فسقط شريط طويل من الضوء على وجه « شريف »، وسمع صوت الحارس يخاطبه.

– زيارة لك يا مسجون.

رفع « شريف » رأسه، فوجد أمامه صديقه « صفوان » ومعه شخص آخر يحمل حقيبة، فقام « شريف » متفائلا واحتضن صديقه « صفوان » قائلا :

– مرحبًا بك يا « صفوان » لقد اشتقت إليك جدًّا.

تعجب « صفوان » ولم يرد وأشار إلى الشخص الذى معه.

– هذا الأستاذ « رشوان » المحامى، أحضرته للدفاع عنك، بمعنى آخر هو الذى تطوع لذلك.

قال « شريف » فى أسًى :

– هل تصدق كل هذا الذى يقال عنى يا صديقى ؟ هل أنا لص؟ هل أنا كنت هنا منذ ثلاثة أيام، وقبلها لمدة ثلاثة أسابيع ؟

كان « صفوان » ينظر إلى صديقه بإشفاق، وكأنه يقول : ما الذى حدث لعقلك يا « شريف » ؟ ربما أثر حادث غرق العبارة فيك فأصبحت تنسى كل شيء !!

فهم « شريف » معنى نظرات صديقه، فانزوى فى أحد أركان الغرفة وأسند رأسه إلى الجدار قائلا :

– حتى أنت يا « صفوان » لا تصدقنى ! فمن إذًا سيصدقنى ؟

أثرت كلمات « شريف » فى « صفوان » فبادره قائلا :

– لا . لا يا صديقى، أنا أصدق كل كلمة تقولها، تعال نستعرض الأحداث معًا ربما وجدنا دليلا على براءتك.

أولاً : أين ذهبت بعد انصرافك من عندى منذ ثلاثة أيام ؟

نظر إليه « شريف » متعجبًا ! وقال : إذًا أنت مثل الآخرين لاتصدقنى !

– وما علاقة ما أقول بتصديقك من عدمه ؟!

– يا « صفوان » أنت تتحدث مثلهم تمامًا، فأنا لم أدخل البلاد منذ تركتها منذ شهر، إلا أمس فقط، فكيف تقول إننى كنت معك منذ ثلاثة أيام ؟

تدخل المحامى فى الحديث قائلا :

– هذا ما قرأته فى أوراق التحقيق، فشريف ينكر وجوده فى البلاد خلال الشهر الماضى، بينما كل من حوله أجمعوا على أنه كان معهم خلال المدة نفسها فمن نصدق ومن نكذب ؟!

وقد طلبت بدورى من إدارة التحقيقات عرض « شريف » على طبيب للتأكد من سلامة تصرفاته، ربما أثر الحادث فى ذاكرته. قال « شريف » بانفعال :

– أنا لا أحتاج إلى طبيب، ودعك من تلك الأساليب، فلست بحاجة إلى البراءة إذا جاءت عن طريق التشكيك فى قواى العقلية.

هدأه « صفوان » وقال :

– دعنا يا صديقى نستعرض الأحداث منذ لحظة مغادرتك البلاد، ربما استطعنا اكتشاف أى خيط يوصلنا إلى الحقيقة.

تنهد « شريف » وقال :

– حسنًا. أولا ركبنا العبَّارة، ثم غرقت بنا على أبواب ميناء « جدة »، وتم نقلنا إلى المستشفى، ثم غادرت المستشفى بعد أسبوع.

– وما الذى حدث بعد ذلك ؟

– قبل خروجى من المستشفى بيوم واحد، حضر إلىَّ رجل

سعودىّ بالزى المعروف وتبدو عليه علامات الثراء، وعرفنى بنفسه قائلاً :

– أنا الشيخ « صالح الجاسم » صديق الأستاذ الدكتور رئيس هيئة الطاقة الذرية .

وأفهمنى أن رئيس الهيئة وصَّاه بى خيرًا، وكلفه أن يعتنى بى بعد أن سمع بأنباء الحادث حتى أستطيع أداء العمرة التى جئت من أجلها، ودعانى لقضاء فترة النقاهة فى قصره، وقد صحبنى بالفعل أثناء العمرة، وبعد ثلاثة أسابيع استخرج لى جواز سفر جديدًا بدلا من الذى فقد أثناء الحادث، وحضرت إلى هنا أمس، ثم فوجئت بالمحقق يخبرنى أن جواز سفرى عليه تأشيرة مغادرة إلى دولة أجنبية، وليس تأشيرة دخول إلى البلاد، كان الأستاذ « رشوان » المحامى يدوِّن باهتمام كل ما يقول « شريف » فى مذكرة كانت معه، ثم قال :

– هناك عدة نقاط أريد أن أستوضحها منك يا سيد « شريف »، لقد ذكرت فى التحقيقات أن جواز سفرك الذى خرجت به من البلاد قد فقد منك فى حادث غرق العبارة .

– نعم .

– ثم ها هو يظهر فى الحقيبة التى وجدت بجوار غرفة « اليورانيوم » المسروق .

فهل تعتقد أنه لم يُفقد، ولكنه سرق منك، ثم وضعه الجانى الحقيقى فى مكان الجريمة لكى تلصق التهمة بك ؟

– هذا جائز جدًّا، ولكن لا يوجد دليل على هذا.

– النقطة الثانية : هل تتذكر عنوان الشيخ « صالح الجاسم »؛ لكى نستدعيه للشهادة ؟

– نعم. أعتقد أنه لن يبخل بالشهادة عندما يعلم بما حدث.

– هذا يكفى اليوم، وسوف يسافر « صفوان » لاستطلاع أمر الشيخ « صالح »، ونأمل أن يأتينا بأخبار طيبة بإذن الله.

كان « شريف » جالسًا، فاعتدل واقفًا متكئًا على جدار الزنزانة، وسلم على صديقه « صفوان » والمحامى، ثم مشى بضع خطوات نحو الباب، وهو يعرج على إحدى ساقيه.

نظر إليه « صفوان » مشفقًا.

– هل تعرضت لأى تعذيب يا صديقى ؟

– كلا يا « صفوان »، لكنها قدمى المصابة منذ حادث العبارة.

– هل تقول منذ الحادث ؟! إذًا أنت تعرج منذ شهر .

– نعم. لأن الإصابة فى باطن القدم نفسه، ولا أستطيع الضغط عليها.

– ولكنك منذ ثلاثة أيام لم تكن كذلك !

– هل ستقول مرة أخرى منذ ثلاثة أيام !

– لا أقصد ولكن أعنى .. لا شيء الآن يا صديقى.

نظر المحامى إلى « شريف » وهو يودعه، وكأنما تذكر شيئًا.

– بالمناسبة يا سيد « شريف »، يوجد ضمن أحراز القضية حذاء تركته، أقصد تركه الجانى عند هروبه. وأريد أن تقيسه على قدمك حتى نتأكد من تطابق مقاسه على قدمك.

– لا مانع عندى.

وفور خروج « صفوان » والمحامى من زنزانة « شريف »، سأله « صفوان »:

– ما رأيك فى موقف « شريف » ؟

– حتى الآن لا أستطيع تكوين صورة واضحة، لكن لا شك أن زيارتنا هذه كانت مفيدة جدًّا، لأننا تعرفنا وجهة نظره، ولكن متى ستسافر لمقابلة الشيخ « صالح » ؟

– غدًا بإذن الله، أو بعد غد.

وفى قصر الشيخ « صالح » جلس « صفوان » فى بهو كبير مؤثث بأثاث فخم، ينتظر نزول الشيخ من أعلى، ثم حضر الشيخ.

– مرحبًا يا أخى. هل من خدمة أقدمها لك ؟

– فى الحقيقة، نحن نعلم مدى كرمكم وشهامتكم؛ لذلك جئت طالبًا خدمة.

بادره الشيخ :

– هل تريد عملاً ؟ إننى أمتلك مجموعة كبيرة من محلات « السوبر ماركت »، والمراكز التجارية، والمزارع، ففى أى مجال تحب أن تعمل ؟

– لقد فهمتنى خطأ يا سيدى. فأنا لا أريد عملا، إنما جئت من أجل موضوع خاص بالسيد « شريف فهمى » .

– ومن يكون « شريف فهمى » ؟

تعجب « صفوان » من رد الرجل، ولكنه استمر فى كلامه.

« شريف » الذى كان فى ضيافتك لمدة ثلاثة أسابيع فى الشهر الماضى !

– لابد أنك أخطأت العنوان يا أخى، فأنا لم أكن فى المملكة كلها منذ شهر ونصف، وعُدت أمس فقط من جولة بأوربا وأمريكا.

– هل تقصد أنك لم تر « شريفًا » على الإطلاق ولا تعرفه ؟

– بالطبع.

– هل يمكننى أن أسأل سؤالاً آخر ؟

– تفضل .

– هل كان القصر مغلقًا فى أثناء غيابك ؟

– لا . فأولاد أخى كانوا يقيمون فيه .

– هل يمكننى مقابلة أحدهم ؟

– نعم . هذا هو « سالم » .

نادى الشيخ على ابن أخيه، الذى كان يهم بالخروج من القصر. وجه « صفوان » كلامه إلى « سالم » :

– يا سيد « سالم » هل كنت تقيم بالقصر طوال فترة غياب عمك؟

– تلعثم « سالم » وقال : نعم لم أغادره على الإطلاق، ولم أر « شريفًا » هذا .

– لكننى لم أسألك عن « شريف » .

– لقد سمعتك تذكر هذا الاسم لعمى .

– لابد أن سمعك حادٌّ جدًّا !

تأكد « صفوان » أن الشاب يكذب . واستأذن خارجًا من القصر .

ولم يكن أمام« صفوان » إلا العودة، وعاد إلى الوطن مهمومًا حزينًا؛ بعد أن فقد الأمل فى الاستعانة بشاهد النفى الوحيد.

وفى مكتب الأستاذ « رشوان » المحامى جلس « صفوان » وفى يده كوب من الشاى، وبعد أن أخذ منه رشفة وجه كلامه إلى المحامى قائلا:

– لقد ذهبت إلى قصر الشيخ « صالح » وأنكر معرفته بشريف، وقال إنه كان مسافرًا طوال الفترة الماضية.

– إذًا « شريف » يكذب ؟!

– لا أعتقد ذلك. فبعد أن سألت ابن أخى الشيخ « صالح » الذى كان موجودًا بالقصر طوال فترة سفر عمه، ظهر لى من كلامه أنه يعرف « شريفًا » أو على الأقل رآه.

– وما معنى ذلك ؟

– ربما كانوا يؤجرون القصر أثناء غياب عمهم دون علمه، وربما استأجره شخص ما انتحل صفة عمهم، وضلل « شريفًا ».

– إذًا أنت تفترض أن كلام « شريف » صحيح، وأنه لم يكن موجودًا هنا، فمن إذًا الذى شاهده الجميع ؟

اعتدل « صفوان » فى جلسته، وقال متجاهلاً سؤال المحامى:

– لقد بدأت أميل إلى تصديق رواية « شريف » لعدة أسباب .

– وما هى ؟

– أولا : لاحظت أن « شريفًا » يعرج لإصابته فى حادث العبَّارة، وهذه الإصابة مذكورة فى التقرير الطبى الصادر من المستشفى الذى كان يعالج فيه، ومع ذلك لم يلاحظ أحد طوال الفترة الماضية أنه كان يعرج !!

ثانيًا : هل يستطيع أى إنسان فى حالة « شريف » الصحية وخاصة بعد الحادث أن يقفز من فوق الأسوار، بل ويسابق رجال الأمن ويهرب منهم ؟!!

– ماذا تعنى يا « صفوان » ؟

– لا أعنى شيئًا . هل ستذهب غدًا لمطابقة الحذاء الذى وقع من الجانى على قدم « شريف » ؟

– نعم .

وفى اليوم التالى، تم استدعاء الحارس الذى شاهد « شريفًا » أثناء هروبه إلى مكتب المحقق، كما تم استدعاء « شريف » من سجنه .

دخل « شريف » فى حراسة أحد الجنود، وما إن رآه جندى الحراسة المستدعى؛ حتى صاح بعد أن هب واقفًا :

– هذا من رأيته يقفز من فوق السور ليلة الحادث، فأنا أعرفه جيداً إنه « شريف فهمى » .

سأله المحامى .

– هل رأيت الحذاء وهو يسقط من قدمه ؟

– نعم . عندما كان يقفز من السور .

– إذاً يُفترض أن هذا الحذاء كان أوسع من قدمه، أو على مقاسها؟

ثم قال لشريف :

البس هذا الحذاء يا « شريف » .

وضع « شريف » قدمه داخل الحذاء فلم تدخل على الإطلاق؛ فقد كانت قدم « شريف » أكبر من مقاس الحذاء .

هنا ابتسم المحامى وقال :

– أكتفى بهذا اليوم يا سادة .

أمسك مدير مكتب التحقيقات بالحذاء، وأخذ يضرب به كف يده فى رفق، وهو ينظر إلى « شريف » فى حدة ثم قال :

– لقد فعلها أعوانك وبدلوا الحذاء .

٤ - القصاص

كانت قضية « شريف » تستولى على كل اهتمام صديقه « صفوان »، وكان كلما وصل إلى خيط جديد، ذهب إلى الأستاذ « رشوان » لكى يناقشه فيه، ولكن فى هذه المرة دعا « صفوان » الأستاذ « رشوان » إلى مكان عام، وجلسا يتحدثان وهما يتناولان الطعام.

قال « صفوان » وهو يضع (طبق السلاطة) قريبًا من ضيفه :

– لقد أصبحت القضية الآن شبه محلولة، إلا من بعض النقاط الصغيرة.

– وكيف تصورت حدوثها ؟

– أعتقد أنه بمجرد خروج « شريف » من المستشفى قابله الرجل السعودى الذى كان يدَّعى أنه الشيخ « صالح »، وكان يستأجر القصر من أولاد أخى الشيخ « صالح »، ثم استضاف « شريفًا » هناك لكى يؤخره عن السفر، حتى تتم عملية سرقة « اليورانيوم »، وعندما يعود « شريف » يتهم بالسرقة.

– وماذا عن تأشيرة المغادرة إلى دولة أجنبية ؟

– هذا أمر بسيط، ألم تجرب أن يصطدم بك شخص ما فتسقط منك حقيبتك ثم يعتذر لك بعد أن يقوم بتبديل الحقيبة ؟ وبذلك

يُخفى دليل عودة « شريف » ويضعه أمام اتهام جديد بالتخابر مع دولة أجنبية.

– وما قولك فى البصمات، وشاهد الإثبات ؟

– أما بالنسبة إلى البصمات، فهذا أمر سهل أيضًا، فيمكن نقل بصمات « شريف » إلى جدران الغرفة بواسطة اللاصق، وأما عن شاهد الإثبات، فلابد أنه رأى شخصًا شديد الشبه بشريف، وإذا كان الجانى قد قلد ملامح « شريف » بالضبط، فإنه لم يستطع توسيع مقاس الحذاء فكان هذا دليلا دامغًا على أنها مؤامرة كبرى.

ضحك المحامى، وهو يتناول قطعة من اللحم، وقال :

– إنك واسع الخيال يا صديقى، وتحاول تبرئة زميلك بأية وسيلة، إن ما تقول لا يفعله إلا شيطان !!، وماذا لو وجدوا « اليورانيوم » فى حجرة « شريف » ؟

– لن يجدوه. فالجانى الحقيقى هو الذى يحتفظ به، ولن يفرط فيه.

نظر المحامى خلسة إلى « صفوان »، وقال بصوت منخفض :

– يبدو أنك قد بدأت تقترب من الحقيقة.

استيقظ « صفوان » على صوت الهاتف يرن بشدة، فنظر إلى الساعة فوجدها تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، فرفع السماعة

على مضض، فسمع من يحدثه من الطرف الآخر يقول :

– « صفوان » أنا « شريف »، لقد استطعت الهرب أثناء نقلى من مبنى المخابرات إلى أحد السجون.

– لماذا فعلت ذلك يا « شريف »، لقد كدنا نصل إلى الحقيقة ؟

– أريد رؤيتك حالا، أنا فى مبنى تحت الإنشاء، بجوار المشروع فى الطابق الأخير. أرجوك يا « صفوان » لا تتأخر.

ارتدى « صفوان » ملابسه، ونزل بسرعة، واتجه إلى حيث أخبره صديقه « شريف »، وصعد حتى الطابق الأخير، فوجد شخصًا يقف بظهره، وما إن استدار حتى وجده صديقه « شريفًا » الذى بدأ يقترب منه ببطء.

– أهلا يا « صفوان » يا صديقى. لقد ألصقوا التهمة بى ظلمًا ولاسبيل للنجاة إلا فى الهرب.

– هذا خطأ يا « شريف »، فلن تظل هاربًا طوال حياتك، لن يتركوك، أنت تعلم أهمية تلك القضية، ثم إننا توصلنا إلى خيوط سوف تؤدى حتمًا إلى القبض على الجانى الحقيقى قريبًا إن شاء الله.

– عظيم . عظيم يا صديقى.

اتجه « صفوان » إلى حافة المبنى، وأخذ ينظر من أعلى وظهره إلى « شريف » وفجأه اندفع « شريف » نحو « صفوان » يريد أن يدفعه من

أعلى المبنى، لكن «صفوان» وبحركة سريعة تنحى جانبًا، فهوى «شريف» من أعلى المبنى مدرجًا فى دمائه.

وما هى إلا دقائق حتى كانت سيارة الإسعاف تحمل «شريفًا» فى طريقها إلى المستشفى فى سرية تامة.

وبعد فترة قصيرة، كان مدير مكتب المخابرات و«صفوان» يدخلان المستشفى الموجود به «شريف»، وتحدثا إلى الطبيب.

– هل يمكننا استجوابه الآن ؟

– إن حالته حرجة، ويتكلم بصعوبة .

– إن الأمر خطير ولابد من استجوابه.

– سأسمح لكما، ولكن فى حدود خمس دقائق.

دخل «صفوان»، ومدير مكتب التحقيقات إلى حجرة «شريف» فوجداه وقد لف رأسه بالشاش، ووضع كل جسمه فى الجبس.

أمسك به «صفوان» قائلا :

– من أنت ؟

– فأجاب بصوت ضعيف : ضحية .

– ضحية لمن ؟

– أنا ضحية « التنين » .

– ومن هو « التنين » ؟

– منظمة إرهابية .

– كيف أصبحت هكذا صورة طبق الأصل من « شريف » ؟

– لقد أعدونى من مدة لهذه المهمة وأجروا عملية جراحية دقيقة فى وجهى بواسطة أمهر الأطباء .

– لماذا ؟

– أولاً لكى ينتقموا من « شريف »، ولكن بعد ذلك وضعوا خطة للاستيلاء على « اليورانيوم المخصّب » لحساب دولة معادية لكم . على أن تلصق التهمة بشريف فيكونوا بذلك قد حققوا هدفين بخطة واحدة .

– ولماذا أردت قتلى أنا أيضًا ؟

– لأنك اقتربت كثيرًا من حل اللغز، وفى هذا خطر علىّ وعلى المنظمة .

– من أخبرك بهذه المعلومات ؟

– « رشوان » المحامى، فهو عميل للمنظمة أيضًا، وقد وضعوه فى طريقك حتى يضللك، ويلف حبل المشنقة حول رقبة صديقك

« شريف » .

– من هم باقى العملاء ؟

– لا أعرف إلا « رشوان »، وفى شقتى المفروشة شفرة أتصل بواسطتها بالتنين، وأتلقى الأوامر عبر جهاز إرسال واستقبال خلف ثلاجة المطبخ، ثم ذكر العنوان لصفوان فكتبه .

وجَّه المحقق السؤال إلى العميل :

– أين « اليورانيوم المخصب » ؟

تمتم العميل قائلا :

سيقتلوننى . . . سيقتلوننى، وارتسمت فى عينيه نظرات رعب شديدة، وأسلم الروح .

خرج المحقق ومعه « صفوان » من المستشفى، بعد أن أصدر تعليماته إلى إدارة المستشفى بأن يظل هذا الأمر فى طى الكتمان، ثم أقلتهم السيارة إلى مبنى المخابرات، وفى أثناء ذلك نظر المحقق إلى « صفوان » بإعجاب قائلا :

– نعم الصديق الوفىّ أنت؛ فقد عرضت نفسك للخطر فى سبيل من تصادق .

– إن « شريفًا » أنقذ حياتى عدة مرات، وله دين فى عنقى .

– ولكن أخبرنى كيف استطعت التفرقة بين « شريف » الحقيقى والمزيف ؟

– لم أستطع فى بداية الأمر لشدة التشابه بينهما وظلمة المكان، ولكنه عندما بدأ يتحرك متجهًا نحوى، كان يتحرك وهو يعرج بقدمه اليسرى بينما « شريف » يعرج بقدمه اليمنى. ويبدو أن المحامى لفت نظره إلى هذه الملحوظة التى أبديتها أنا له، لكنه لم يدرك فى أى قدم كانت الإصابة. وعندما أوليته ظهرى، كان لدى إحساس داخلى بما سيقدم عليه؛ فأسلوب هؤلاء العملاء معروف، فهم يقتلون الضحية بصورة تبدو وكأنها حادث عادى.

وصلت السيارة إلى مبنى إدارة المخابرات، وصعد الاثنان إلى مكتب رئيس الإدارة الذى كان فى انتظارهما، وأخبراه بما حدث.

فقال متنهدًا :

– حقًّا. إن النقص من صفات البشر، والجريمة الكاملة لم تحدث بعد، ولابد للجانى من الوقوع فى خطأ يؤدى إلى اكتشاف أمره، وقد ظلمنا « شريفًا » وعرضناه لمحنة شديدة.

قال المحقق موجهًا كلامه إلى مدير مكتب المخابرات :

– أقترح يا سيدى أن يظل الأمر سرًّا؛ حتى لا تعلم به المنظمة، ويتم القبض على المحامى فى سرية تامة، ربما دلنا على مكان إخفاء

« اليورانيوم » .

– لا . لا تقبضوا على المحامى الآن، المهم هو قطع رأس الأفعى وليس ذيلها، وعندى خطة لذلك .

– ما هى تلك الخطة ؟

– سنحاربهم بسلاحهم نفسه .

دخل « صفوان » لزيارة « شريف » فى سجنه ليبلغه بالأخبار السارة؛ فسجد « شريف » شكرًا لله، هنا قال « صفوان » :

لقد اعتقدت لفترة أن « رشوان » يعمل جاهداً لتبرئتك؛ خاصة بعد موضوع الحذاء الذى طلب بشدة قياس قدمك عليه .

– أعتقد أنه أراد من وراء ذلك إثبات التهمة علىّ أكثر وأكثر، ولما لم تفلح اتخذها وسيلة لنثق به لحين تدبير خدعة أخرى، ولكن الحمد لله خاب كيدهم .

تم تشديد الرقابة على « رشوان »، ونشر خبر مصرع « صفوان » فى حادث عادى بالصحف، وفى الوقت نفسه منعوا زيارة « شريف »؛ حتى لا يحاول « رشوان » مقابلته، فلم يبق على الساحة الآن غير « شريف » الحقيقى الذى يقع على عاتقه عبء ثقيل وضخم .

وبدأت الخطوات التالية، بعد أن تأكد رئيس المخابرات من براءة « شريف »، وأن كل ما حدث ما هو إلا مؤامرة قد حيكت بإحكام

لتدمير « شريف »، ومستقبل البلاد، وتم إخفاء هذا الأمر عن الجميع.

توجه « شريف » بمفرده إلى شقة العميل، وفتحها بمفتاحها، ودخل فوجدها مؤثثة على أحدث طراز، ومزودة بكل ما يحتاج إليه الإنسان من أجهزة، وسار حتى وصل إلى المطبخ، وجذب الثلاجة إلى الأمام فوجد (دولابًا) فى الحائط، وبمجرد أن فتحه أصابته الدهشة لما يحتوى عليه من أدوات تجسس حديثة ومتنوعة، تناول أحد أجهزة الإرسال والاستقبال وأخرجه، فوجد أسفل منه كُتيبًا صغيرًا يتضمن الشفرة والكلمات السرية التى تستخدم فى تبادل الرسائل.

وكان قد تم تدريبه عليها بواسطة أحد رجال المخابرات، جلس « شريف » فى بهو المنزل، وأطلق تنهيدة ارتياح، وتمتم قائلا :

– نحن الآن على الطريق الصحيح.

٥- المؤامرة الكبرى

وفى « لندن » وضع رئيس المنظمة الإرهابية المنشفة على وجهه؛ لتجفيف عرقه بعد (١٠) دقائق من الجرى والتمارين، ثم ارتمى على كرسى من الخيزران وقد وقف بجواره أحد أعوانه، ومد إليه زجاجة مياه، فشربها كلها فى جوفه دون توقف، ثم صدر رنين من جهاز التليفون اللاسلكى الذى لا يفارقه، وما إن انتهت المكالمة حتى أخذ فى إطلاق ضحكات عالية، اهتزّ لها بدنه السمين.

سأله الحارس:

– لعل الأمر خير ياسيدى .

أجابه بشماتة واضحة، وهو يضغط على أسنانه :

– لقد قضينا على « شريف » نهائيًّا، وقمنا بعملية كبرى قد تعوض بعض الخسائر التى سبَّبها لنا ذلك الشقى، والآن أبلغونى أنه تم تحديد موعد محاكمته، وهو يواجه عقوبة الإعدام بيد من أخلص لهم، ومن حسن الحظ أننا استطعنا لف حبل المشنقة حول رقبته بإحكام شديد؛ حتى يكون عبرة لكل من يحاول الوقوف فى وجه منظمة « التنين » .

جلس « شريف » يفكر وهو فى شقة العميل « زد٢ » كما قرأها

على كتيب حل الشفرة. وقال فى نفسه : من يا ترى زعيم « التنين »؟ وأين أخفوا « اليورانيوم » ؟ ومتى سيحدث اتصال لكى نعرف المزيد من التفاصيل ؟

انتظر « شريف » على أمل أن تتصل المنظمة بعميلها، وترك جهاز الاستقبال مفتوحًا بعد أن ركَّب به جهاز شحن إلكترونيًّا؛ حتى لا تفرغ الطاقة من البطارية الجافة، قال « شريف » فى نفسه :

– إذا حدث هذا الاتصال، فإنه سيوضح ما إذا كانت المنظمة قد علمت أى شىء عن مقتل « زد ٢ » أم لا، وهل أخبرهم « زد ٢ » بمكان « اليورانيوم » أم لا ؟ وهل تم تهريبه خارج البلاد أم لا ؟

أصدر الجهاز رنينًا فانتفض « شريف » الذى كان سابحًا فى أفكاره، ثم سمع رسالة قصيرة مرسلة بالشفرة، وبعد حل رموزها كانت :

« من التنين إلى « زد ٢ » سيتم تغيير مواعيد الاتصال طبقًا للجدول رقم ٥٠ بكتاب الشفرة. فى انتظار رسائلك انتهى ».

استنتج « شريف » من ذلك أنهم يقومون بتغيير مواعيد اتصالهم كل فترة؛ إمعانًا فى الاحتياط والسرية، وهى فى حد ذاتها معلومة مهمة ستكون البداية لمعرفة المزيد عنهم.

عكف « شريف » على قراءة الجدول رقم « ٥٠ » ، وقرر أن يجرى

أول اتصال بهم ليبلغهم بخبر مهم :

« تم القضاء على « صفوان »، والآن أصبح « شريف » وحيداً » .

وبعد أقل من ساعة كان الرد قد وصله :

« تهانينا بقضائك على « صفوان »، انقل « اليورانيوم » بمساعدة « رشوان » إلى النقطة رقم (٢) وأبلغنا بالنتيجة » .

اتصل « شريف » منتحلا شخصية العميل « زد ٢ » برشوان وأبلغه برسالة « التنين » فحضر إليه فى شقته .

– ما هذا الذى فعلته أيها المجنون ؟

– قتلت « صفوان » حتى لا يستطيع تبرئة صديقه « شريف » .

– لقد أخبرتك بالمعلومات التى توصل إليها « صفوان »، ولكنى لم آمرك بقتله .

– وهل أنتظر حتى يكشف الخطة ويُقبض علىّ ؟!

– كنا سنتخلص منه، لكن فى الوقت المناسب .

– هوّن عليك يا صديقى، لقد تمت العملية بنجاح، والآن علينا أن ننقل « اليورانيوم » إلى النقطة رقم (٢) .

– إذًا هيا بنا .

قال « زد ٢ » فى حزم :

– لا يا صديقى إن فى ظهورى خطرًا كبيرًا علىّ، اذهب أنت بمفردك وإلا أفسدنا كل شىء.

– ولكننى قد لا أستطيع الوصول بواسطة الخريطة فقط.

– حاول. وإذا لم تستطع؛ ففى هذه الحالة سأضطر إلى الذهاب معك.

خرج « رشوان » من شقة العميل « زد ٢ » وركب سيارته، وفى هذه الأثناء كان هناك من يراقب كل تحركاته بدقة، ثم اتجه إلى الطريق الصحراوى، وسار مسافة كبيرة، وعند أحد الطرق الفرعية انحرف يسارًا فى طريقه إلى إحدى المزارع، وكان من المتعذر تعقبه وإلا افتضح أمر مراقبيه.

اتصل الضابط المكلف بالمراقبة برئيسه يطلب المشورة، فأخبره أن ينتظر مكانه لحين صدور تعليمات أخرى.

كان فى إدارة المخابرات شاشة تليفزيونية، تتحرك عليها نقطة لامعة ما لبثت أن توقفت عن التحرك، ولم تكن تلك النقطة إلا سيارة « رشوان » التى ألصق بها جهاز خاص لمتابعته عن بعد، وبعد فترة اتصلت الإدارة بالمجموعة المكلفة بمراقبة « رشوان » :

– « لقد توقف على مسافة غير بعيدة عن الطريق، حاولوا تعقبه

على أقدامكم دون استخدام السيارة».

كان «رشوان» قد وصل إلى مزرعة فى الصحراء، ودخل أحد مبانيها، فقابله رجل يتحدث العربية بلهجة أهل الشام، ورحب به قائلا :

– مرحبًا يا سيد «رشوان». أهنئكم بنجاح عمليتكم الأخيرة، كما أهنئكم بقضائكم على «صفوان» أيضًا.

– لقد كان عقبة كبيرة يا سيد «عساف».

– لقد أبلغنى «التنين» بالأوامر الجديدة.

– إذًا أنت تعلم سبب حضورى.

– نعم، وقد جهزت لك الأمانة وسيقوم أحد الرجال بوضعها فى مكان سرى بالسيارة، ولكن أين «زد ٢» فقد كان من المفروض أن يحضر معك، فقد أخفيناها معًا، ولولا وجودى لقضيت فترة طويلة فى البحث عنها.

– إن معى خريطة بالموقع، وقد فضل «زد ٢» ألا يحضر لأن سلطات الأمن نشطة جدًّا فى هذه الأيام؛ وكان لابد من التقليل من تحركاته إلى أدنى حد.

ثم استمر «رشوان» فى حديثه قائلا :

– ولكن ما أخبار نشاطك أنت؟

– لا أقل عنكم نجاحًا، فبعد أن سمحوا بوجودنا هنا وأنا أعيث فى الأرض فسادًا، وأنشر الآفات والأمراض القاتلة، والأفكار الهدامة، هذه حرب طويلة بيننا وبينهم، وإن خبت نيرانها فترة فإنها متوقدة تحت الرماد.

– حظ سعيد يا «عساف».

– وأنت أيضًا يا سيد «رشوان» أم أناديك بالسيد «ياجورى».

– إن اجتماع اسمينا يذكرنى بالهزيمة ؛ لذلك أفضل اسم «رشوان».

لم يفت ضابط المخابرات الذى تتبع «رشوان» ثم جلس مختبئًا خلف المنزل، أن يسجل هذا الحديث الخطير؛ وعلم أن للتنين أعوانًا آخرين لم يكونوا معروفين من قبل ، وبعد أن أنهى مهمته عاد إلى أول الطريق الذى لم يكن يبعد كثيرًا، بعد أن رأى أحد أعوانهم يخبئ صندوق «اليورانيوم» فى مكان سرى بالسيارة، انطلق «رشوان» بسيارته إلى النقطة «رقم ٢» ومعه الشحنة الثمينة.

اتصل ضابط المخابرات برئيسه؛ وسأله هل نقوم بالقبض على «رشوان» الآن خاصة أن معه الشحنة، أى جسم الجريمة؟

– لا . فلا بد من الوصول إلى أكبر عدد منهم.

– لكننا قد نفقد « اليورانيوم » ثانية ؟!

– لا تتعجل ، ونفذ ما أقوله لك حرفيًّا .

وبعد قيادة السيارة لمدة أربع ساعات، كانت قوات المراقبة تقوم خلالها بتغيير السيارة عند نقاط معينة؛ حتى لا يثير شكلها أى شكوك عند « رشوان » ، وبعد فترة ظهرت من بعيد أضواء استراحة على الطريق، ما لبث أن انحرف « رشوان » ناحيتها، ونزل من السيارة ليستريح بها بعد أن أرهقه طول السفر، وخلفه مباشرة كانت سيارة المخابرات تتوقف أيضًا للتزود بالوقود .

انتهز أحد الضباط تلك الفرصة وتسلل إلى سيارة « رشوان » وفى حذر شديد مد يده وأخرج الصندوق من مخبئه ونقل « اليورانيوم » بسرعة باستخدام عازل خاص إلى صندوق آخر كان معه، ووضع فى الأول كتلة من الحديد مساوية لشحنة « اليورانيوم » فى الوزن والشكل . ثم اتصل بأقرب نقطة مخابرات، وطلب سيارة ثانية .

خرج « رشوان » بعد تناوله فنجانًا من القهوة، ثم ركب سيارته مواصلا سيره إلى الحدود بعد أن اطمأن على وجود الصندوق فى مكانه، أما ضباط المخابرات فقد قسموا أنفسهم إلى فريقين، فريق عاد بصيده الثمين إلى مقر الإدارة، وفريق تابع مراقبة « رشوان » ليصل إلى باقى أفراد العصابة .

وقبل الحدود بحوالى كيلو متر توقف « رشوان » أمام مجموعة

خيام لبعض الأعراب، وسلمهم الصندوق، ثم استراح فترة بدأ بعدها مشوار العودة قبل مطلع الفجر بقليل.

رن الهاتف فى منزل « زد ٢ » ، وكان المتحدث « رشوان » فقال له:

– لقد تمت العملية بنجاح يا سيد « زد ٢ » أبلغ « التنين ».

اتصل « زد ٢ » أو « شريف » الحقيقى بمنظمة « التنين » وأخبرهم بالرسالة.

– « تمت العملية بنجاح ».

وبعد حوالى ساعة جاءته رسالة ، وما إن حل شفرتها حتى أصيب بالوجوم !!

– « انتهت مهمتك . عد إلى قواعدك ».

وضعت هذه الرسالة « شريف » فى مأزق حرج، فهو لا يعرف إلى أين سيذهب، كما أنه إذا لم ينفذ الأمر ربما ارتابوا فى أمره، وخطرت له فكرة.

اتصل « زد ٢ » برشوان الذى كان مستغرقًا فى نوم عميق بعد رحلة السفر الطويلة فى الليلة الماضية.

رد « رشوان » بكسل :

– من ؟

– يا سيد « رشوان » أريدك حالاً .

– مستحيل؛ فأنا فى غاية التعب والإرهاق .

– إن الأمر مهم ولا يقبل التأجيل .

– سأحضر إليك بعد ساعتين .

وصل « رشوان » إلى منزل « زد ٢ » وهو متعب جدًّا .

– مرحبًا يا « رشوان » . لقد اتصلوا بى وأمرونى أن أعود إلى قواعدى، فما رأيك ؟

– أوامر « التنين » لا تناقش يا عزيزى .

– ولكن خروجى من البلاد يمثل خطرًا كبيرًا على نجاح الخطة ؟

– نعم . معك حق، خاصة أن معظم الناس يعرفون وجهك الآن بعد حادث « اليورانيوم »، والسلطات نشطة جدًّا .

– وما العمل ؟

– اطلب منهم أن يرسلوا من يساعدك على الخروج من البلد ؟

اتصل « زد ٢ » بالتنين وجاءه الرد :

– « سنرسل إليك من يخرجك » .

وبمجرد خروج « رشوان » من منزل « زد ٢ » وجد من ينتظره قائلا :

– يمكنك إكمال نومك عندنا.

وكان ذلك جزءًا من الخطة.

وبعد عدة أيام وصل مندوب المنظمة، وأخبر «زد ٢» أنه سيقوم بتهريبه عن طريق البحر إلى «قبرص»، وبعد ذلك إلى «إنجلترا»، فقال «شريف» فى نفسه: إنجلترا مرة أخرى.

فقد كانت مغامرته السابقة فى محاربة تجار السموم بكل ما لاقى فيها من مخاطر، لا تزال تحفر أخدودًا عميقًا فى عقله.

بمجرد وصول «زد ٢» إلى «إنجلترا» أخبروه أن التنين يريد مقابلته.

وفى صباح اليوم التالى، كانت السيارة تأخذه إلى وكر «التنين» الذى اختار له قمة عالية وسط منطقة جبلية مسطحة يصعب على أى شخص الاقتراب منها دون اكتشافه؛ فالمكان هذه المرة لم يكن فى إحدى ناطحات السحاب، ولكن فى مكان أشبه بالقلعة. وقد اتخذوا من تجارة الأخشاب ستارًا لهم فامتلأت الساحة بالمئات من أكوام الخشب المرصوص.

دخل شريف إحدى الحجرات، فوجد شخصًا يقف بجوار النافذة، ويدخن سيجارًا كبيرًا، ثم تكلم بصوت خشن وهو يستدير نحوه قائلا:

– مرحبًا « زد ٢ » .

وبمجرد أن سمع « شريف » الصوت سرت رعدة قوية فى جسمه، فقد كان المتكلم هو « البدراوى » عدوه اللدود .

اقترب منه « البدراوى » ونظر إليه متفحصًا وقال :

– لقد أتقن الطبيب عمله إلى حد بعيد ؛ فمن يراك لا يستطيع أن يفرق بينك وبين « شريف » الحقيقى .

حاول « شريف » أن يبدو متماسكًا، وقال وهو يضع يده فوق فمه :

– لذلك فقد نجحت الخطة نجاحًا باهرًا . معذرة فإنى مصاب بنزلة برد .

– لقد أديت دورك ببراعة تستحق عليها الإعجاب والمكافأة .

– مكافأتى هى رضاك يا سيدى .

– عجبًا لقد أصبحت لبقًا أيضًا فى كلامك مثل « شريف » ! هل أجريت عملية جراحية فى لسانك أيضًا ؟

وأثناء حوارهما رن الهاتف، فرد عليه « البدراوى »، وكان المتحدث رئيس مخابرات الدولة المعادية، يسأل عن موعد استلام « اليورانيوم »، ورد عليه « البدراوى » :

– بعد أن تسلموا الدفعة الأخيرة، وهى تساوى نصف المبلغ تقريبًا.

– لكن الدفعة الأخيرة يا سيدى لن تكون إلا بعد التسلّم والاختبار والتحليل.

– موافق، والتسليم غدًا عند النقطة « ٢ »، وسوف تعرف أن منظمة « التنين » أفضل ألف مرة من منظمة « الذئاب »، ثم وجه كلامه إلى « زد ٢ » قائلا :

– سوف تتم العملية غدًا وأكافئك.

* * *

٦- نجاح الخطة

ارتعشت يد «البدراوى» وهو ممسك بسماعة الهاتف، وقد بدت عليه الدهشة والذهول.

– هل أنت متأكد مما تقول ؟

– نعم يا سيدى، لقد سلمنا الأمانة وبمجرد فتحها وجدناها قطعة من الحديد.

– هذا مستحيل .. مستحيل ولابد من تحرى الأمر، ثم وضع السماعة فى عصبية، ونادى على أحد معاونيه.

– أحضر إلىَّ «زد ٢» فورًا.

وبمجرد حضور «زد ٢» استقبله «البدراوى» بعاصفة من الصراخ.

– أيها الخائن سأقطعك إربًا إربًا.

– ماذا حدث .. ماذا حدث يا سيدى ؟

– أنت تخدعنى ؟!!

– فى أى شىء خدعتك ؟

كان « شريف » يرتجف خوفًا من أن يكونوا قد اكتشفوا أمره .

– لقد وجدوا قطعة من الحديد مكان « اليورانيوم » ، تنهد « شريف » بعد أن اطمأن على حياته بثقة :

– لا تتسرع فى الحكم علىّ يا سيدى، فقد قمت بمهمتى على أكمل وجه، أما « رشوان » فهو الذى قام بمفرده بنقل الشحنة من النقطة « ١ » إلى النقطة « ٢ » حسب اتفاقى معه، وربما طمع فيها وأخذها لحسابه .

– لو كان كلامك هذا صحيحًا ، فالويل لرشوان .

وعبثًا حاول « البدراوى » الاتصال برشوان، لكنه لم يستطع العثور عليه، فكرر المحاولة ولكنه فشل مرة أخرى، ثم قال والشرر يتطاير من عينيه :

– إذًا لقد هرب الخائن، ولكننى سأجده حتمًا وأنتقم منه .

أثَّر هذا الحادث فى كل خطط « البدراوى »؛ فقد كان ينوى قتل

« زد ٢ » بعد إتمام تسليم الصفقة لإخفاء كل معالم جريمته، ولكنه عدل عن ذلك، وقرر تغيير خطته.

وبعد فترة دخل « زد ٢ » مكتب « البدراوى » وقال له :

– هل يسمح لى سيدى بأن أعرض عليه اقتراحًا ؟

– أسمعنى اقتراحك.

– إذا كان « رشوان » قد استولى على « اليورانيوم » فلابد أنه أخفاه فى مكان ما.

– هذا منطقى.

– ما رأى سيدى لو أرسلنى مرة أخرى إلى هناك، وسوف أستطيع تحديد مكان اختفاء « رشوان »، فأنا أعرف كل الأماكن التى يحتمل أن يختبئ فيها ؟

– وماذا بعد ذلك ؟

– سأجبره على الاعتراف بمكان إخفاء « اليورانيوم » وهنا تحضر أنت بنفسك وتسلم الشحنة إلى العملاء، وبذلك تعود الثقة بينك

وبينهم؛ وكأن ما حدث قبل ذلك شيء مخطط له بذكاء.

أعجب «البدراوى» بالخطة التى ستظهره كبطل لا يقهر وقال:

– استعد للعودة غداً يا «زد ٢».

– أمر سيدى، ولكن لا تحضر قبل إخبارك بنجاح العملية، وبعد إذن سيدى سأتخلص من «رشوان» بمجرد حصولى على «اليورانيوم»؛ جزاء ما اقترفه من خيانة ؟

– موافق .. موافق يا «زد ٢».

وهنا قال «شريف» فى نفسه.

جاء دورك يا «بدراوى».

شعر «شريف» أو «زد ٢» بالإرهاق فقرر أن يذهب إلى الفندق لكى يستريح، ودخل حجرته بخطى ثقيلة، وجلس على أقرب كرسى وأسند رأسه على مسنده، وراح فى النوم، وفجأة شعر «شريف» بمن يضع يده فوق عينيه قائلا :

– فكر يا «شريف»، من أنا ؟

عندما سمع « شريف » صوت محدثه التفت إليه بسرعة قائلا :

– « صفوان » !! ألا تعلم أن فى حضورك هنا خطرًا كبيرًا علينا وعلى الخطة ؟!!

– لم أستطع أن أتركك بمفردك يا « شريف » .

– وهل تعتقد أن جهاز المخابرات قد تركنى بمفردى ؟

على كل حال سأسافر غدًا إلى بلادنا، ألن تسافر معى يا « صفوان » ؟

– لا ، فعندى مهمة لابد من إنجازها أولاً .

– فى أى شىء تفكر يا « صفوان » ؟

– أفكر فى تقليم أظافرهم . وتأديبهم حتى لا يقووا على التعرض لك أو لغيرك مرة أخرى .

– فى هذا خطر شديد عليك .

– لا تخف علىّ، كل ما أريده منك أن تصف لى كيفية الدخول والخروج، وتفاصيل مخبئهم الحصين ؟

– هذا جنون يا «صفوان» فالمكان محصن جدًّا ومدجج بالسلاح، وقد تفسد خطتنا إذا علموا أنك ما زلت على قيد الحياة.

– لا تخف، سوف أتصرف بحرص شديد.

– أخبر «شريف» صديقه «صفوان» بتفاصيل المكان، وبكل ما يعرفه عن استحكاماته، خاصة أنه دخل وخرج من المكان أكثر من مرة، وعرفه جيدًا، وبعد أن تأكد «صفوان» من مغادرة «شريف» لإنجلترا جهز نفسه لتنفيذ العملية.

تربص «صفوان» على الطريق المؤدى إلى الوكر ليلا، وبعد فترة شاهد من بعيد شاحنة تحمل «تنكًا» كبيرًا للبنزين فى طريقها إلى وكر «التنين».

تمدد «صفوان» فى وسط الطريق وكأنما صدمته سيارة، توقف سائق الشاحنة عندما شاهده، ونزل ليستطلع الأمر، وما إن لمس «صفوان» حتى أصابته فى وجهه صاعقة من اللكمات أفقدته الوعى تمامًا، أما زميل السائق فكان ينظر إلى ما يحدث فى ذهول، ولم يكد يفيق من هول الصدمة حتى كان «صفوان» ينتزعه من مقعده ويلقى

به على الأرض ويعاجله بضربة قوية فى وجهه، ثم أوثقهما فى إحدى الأشجار البعيدة، وأسرع إلى الشاحنة وركبها فى طريقه إلى الوكر.

وما إن رأى حراس البوابة الحصينة الشاحنة حتى سمحوا لها بالدخول على الفور.

وجد «صفوان» نفسه داخل منطقة مسطحة تؤدى إلى الوكر القابع على ربوة عالية، أخذ «صفوان» يدور حول الوكر بعد أن فتح محبس «تنك» البنزين فتدفق البنزين منه بقوة حتى أحاط الوكر بدائرة كبيرة.

قال «صفوان» فى نفسه :

– الآن نلقى بالماء فى جحر الجرذان ؟ حتى نضطرها إلى الخروج فيسهل اصطيادها.

صاح «صفوان» بصوت مرتفع :

– الذئاب .. الذئاب .. الذئاب.

وكانت تلك الكلمة كافية لبث الذعر فى النفوس؛ فخرج أفراد

المنظمة شاهرين أسلحتهم ، بعد أن أضاءوا المكان بكشافات قوية .

تمتم « صفوان » :

عندى لكم أضواء أفضل، فأطلق رصاصة واحدة فى اتجاه دائرة البنزين فاشتعلت، وأخذت تدور محاصرة أفراد العصابة، حتى اكتملت دائرة النيران، وما إن وصلت إلى الشاحنة حتى دوى انفجار هائل، وأصبحوا جميعًا داخل مصيدة النيران وكل يحاول النجاة بنفسه ولكن دون جدوى .

أما « صفوان » فقد كان خارج نطاق دائرة النيران، وهو يتلقى كل من ينجو من النار بسلاحه فيصيبه برصاصة واحدة .

وبعد قليل لاحظ « صفوان » أن جزءًا من الدائرة قد بدأت نيرانه تخبو فتخطاه بسرعة وصعد إلى الوكر، وأخذ طريقه إلى هدف معين، وما هى إلا لحظات حتى وصل إلى مخزن ذخيرتهم، فأشعل فتيل أحد أصابع « الديناميت »، ووضعها فى وسط المخزن، وانطلق بسرعة خارج الوكر، لكن أحد رجال المنظمة تعلق به من الخلف وأحاط رقبته بكلتا ذراعيه، فثنى « صفوان » جذعه إلى الأمام وأمسك برأس غريمه وطرحه

أمامه فى سرعة ورشاقة متخلصًا منه.

وفى أقل من ثانية كان «صفوان» محاطًا بعدد من أفراد العصابة، وكلهم قد استعد للوثوب عليه والفتك به، تقهقر إلى الخلف فوجد أحد الأبواب خلف ظهره، وبسرعة البرق كان «صفوان» داخل الغرفة بعد أن أغلق الباب من الداخل، وتوجه إلى النافذة وألقى بنفسه وفى اللحظة نفسها التى انفجر فيها مخزن الذخيرة مدمرًا الجزء الأكبر من الوكر، وما تبقى من الرجال، ولم ينج «صفوان» هو الآخر من الانفجار؛ فارتطمت رأسه بالأرض لكنه لم يفقد الوعى تمامًا.

شاهد «صفوان» – وهو يتألم بشدة – أحد الحراس يجرى مسرعًا ناحية إحدى السيارات ليركبها طلبًا للنجاة من هول ذلك الجحيم، فاستجمع كل قواه وبصعوبة شديدة استطاع أن يتعلق بمؤخرة السيارة.

ابتعدت السيارة بعيدًا، وما زال «صفوان» يسمع دوى الانفجارات المتتالية فتطربه، بينما ألسنة النيران تتصاعد من الوكر محيلة الليل إلى النهار.

سمع «البدراوى» بخبر تدمير الوكر فاستشاط غضبًا، وقال :

– سننتقم من منظمة « الذئاب » أشد الانتقام، وسيكون ردى عليهم قاسيًا وعنيفًا، سأطلب أشد الأسلحة فتكًا فى مقابل صفقة « اليورانيوم »، ولن يبخلوا علينا بها، فقد أمدونا من قبل بالكثير من السلاح والذخيرة وقطع الغيار، وسألقن بها « الذئاب »، وكل من يقف ضدنا درسًا قاسيًا لن ينسوه أبدًا.

كان « البدراوى » فى انتظار إشارة « زد ٢ » بانتهاء مهمته وأخيرًا تحقق ما أراد، واتصل به « زد ٢ » :

– « تمت المهمة بنجاح. أنا فى انتظارك ».

ابتلع « البدراوى » الطعم، وعلى الفور تهيأ للسفر إلى « زد ٢ » أو « شريف » المتنكر، واستطاع دخول المطار تحت سمع وبصر رجال المخابرات، ثم توجه إلى مقر « زد ٢ » فاستقبله بترحاب قائلا :

– مرحبًا يا سيدى.

– ماذا فعلت يا « زد ٢ » ؟

– لن أتكلم ولكننى سأجعلك تشاهد فيلم « ڤيديو » أولا.

– هل هذا وقت مزاح ؟!

– كلا يا سيدى إن الفيلم جزء من العمل.

أدار « زد ٢ » الفيلم، وجلس « البدراوى » مذهولا وقال :

– لم أكن أظنك بهذا الذكاء يا « زد ٢ » إنك تشبه فى ذكائك « شريفًا » الحقيقى ؟!!

كان الفيلم يصور « رشوان » وهو مقيد الأيدى والأرجل، ويعترف بمكان « اليورانيوم ». وبعد انتهاء الفيلم أشار « زد ٢ » إلى « البدراوى » قائلاً :

– والآن هيا بنا.

– إلى أين؟

– إلى حيث يوجد « اليورانيوم ».

وبمجرد خروجهما من باب المنزل، أحاط بهما رجال المخابرات، وأسقط فى يد « البدراوى » فلم يبد أية مقاومة، ونظر حوله فبادره الضابط قائلا :

– إذا كنت تبحث عن رجالك فهم فى انتظارك عندنا.

وفى الزنزانة : جلس «البدراوى» و«زد ٢» على الأرض، وقال «البدراوى» فى ذهول :

– كيف حدث كل هذا ؟ لقد انتهينا !!

– لا تخف يا سيدى، خمسة وعشرون عامًا ليست بالمدة الطويلة.

نظر إليه «البدراوى» بوجه خالٍ من أى تعبيرات، ولكن «زد ٢» بادره قائلاً :

– آسف لن أستطيع المكوث معك أكثر من ذلك فعندى موعد مهم.

وهنا أخذ «البدراوى» يصرخ ويردد بكل ما أوتى من قوة وفى هستيرية، وقد جحظت عيناه :

– «شريف ؟!! سأنتقم منك .. سأنتقم منك .. سأنتقم منك..»